

دور المؤسسة الدينية في الجزائر (بين تحديات الماضي ورهانات المستقبل) -زاوية الفقيه المصلح المغيلي النلمساني النواني أنموذجاً-

د. ناجح مولاي
د. شرالي لخضر
جامعة الأغواط
المركز الجامعي أفلو

ملخص:

إن الحديث عن دور المؤسسة الدينية في الجزائر، هو في صلبه حديث عن رجالات قدموا الكثير لهاته البلاد، كما هو حديث عن المسجد و الزاوية اللذين ارتبطا اسمهما بهاته الرجالات المساهمة في التغيير الثقافي والسياسي والعلمي في البلاد والبلدان المجاورة لها؛ وهذا متجسدة في علاقة الجزائر الثقافية والتجارية بأفريقيا السوداء على وجه مخصوص.

ولما كانت زاوية الفقيه المصلح "محمد بن عبد الكريم المغيلي" أنموذجاً لبحثنا هذا، فقد أردناه لتوضيح دور المؤسسة الدينية في الجزائر إذ استطاع أن يجمع بين دور المسجد والزاوية في مهمة موحدة لا خلاف حولها هي مواجهة تحديات الماضي و رهانات المستقبل أن ذاك.

الكلمات المفتاحية: مؤسسة - دين - مؤسسة دينية - دور - مسجد - زاوية - تغيير .

- Abstract:

Talking about the role of the religious institution in algeria, means talking about its men who provided a great deal to this country. It is also a talk about the mosque and the religious school which are attached to these men who contribute in the cultural, political and scientific changes in the country and neighbouring countries. And this is embodied in the cultural and economical relationship of algeria with the black africa in particular.

Since the religious school of El-fakih Mohamed ben abdelkarim El-Maghili is a model of our research, so we wanted to clarify the role of the religious institution in algeria, through which he was able to combine between the role of the mosque and the religious school in a unified mission with no contrast with it to face the past challenges and the future mortgages.

- **Keywords** : institution- religion-religious institution- role- mosque – religious school – change-

* استهلال:

إن الحديث عن دور المؤسسة الدينية في الجزائر، هو في صلبه حديث عن رجالات قدموا الكثير والكثير لهاته البلاد، فهانت في أعينهم المشتاقات حين قاصوها بالغايات؛ كما هو حديث عن المسجد و الزاوية المرتبط اسمهما بهاته الرجالات المساهمة في التغيير الثقافي والسياسي والعلمي في البلاد والبلدان المجاورة لها، وهذا متجسد في علاقة الجزائر الثقافية والتجارية بأفريقيا السوداء على وجه مخصوص.

ولما كان للتطور التاريخي والاجتماعي ارتباط بهاته العلاقة ثقافياً وسياسياً وعلمياً؛ فهذا البحث يسعى في محتواه إلى الإجابة عن جملة من الأسئلة نذكر منها:

- ما معنى قولنا "مؤسسة دينية"؟ أو "زاوية" أو "مسجد"؟
- ما هو الدور الذي لعبته المؤسسة الدينية - مسجداً، زاوية، كتابياً... - في مواجهة تحديات الماضي من (جهل وهوية واستعمار... وغيرها) وهو غائب عنها في وقتنا الحاضر؟

- كيف "تساهم المؤسسة الدينية" اليوم في مواجهة الرهانات المستقبلية من (إرهاب، جنوسة، حادثة وعولمة وعلمانية... وغيرها)، والتي تفرض نفسها اليوم على حضارة العربية والإسلامية.
- ولما كانت زاوية الفقيه المصلح "محمد بن عبد الكريم المغيلي" أنموذجا لبحثنا هذا، فقد أردناه لتوضيح دور المؤسسة الدينية في الجزائر؟ إذ وجب علينا أن نتعرض لحياته وأهم أدواره ووظائفه - من خلال زاويته كمؤسسة دينية - في المجال العلمي والثقافي والسياسي؟
- ما علاقة الفقيه المغيلي بالتصوف؟ وكيف زواج الإمام المغيلي بين ثقافة المعرفة وثقافة التصوف في تغير الظروف والأوضاع في منطقة توات والمناطق المجاورة خلال عصره؟

* التأميل المفاهيمي:

1- مفهوم المؤسسة الدينية:

1-1- في اللغة :

يطلق على لفظة المؤسسة الدينية في اللغة الفرنسية (Institution Religieuse) وتعني:

1-2- في الاصطلاح:

1-2-1- في علم الاجتماع:

المؤسسة الدينية تعني: « نسق من المعايير والأدوار الإجمالية المنظمة التي تواجه الحاجة الدائمة إلى الإجابة على الأسئلة النهائية المتصلة بهدف الحياة وبمعنى الموت، وهي تختلف عن المؤسسة السياسية (Institution Politique) والتي تعني المؤسسة الاجتماعية أو مركب المعايير الاجتماعية والأدوار التي تعمل على تدعيم النظام الاجتماعي وممارسة القوة من أجل ضمان الامتثال لنسق الدولة القائم »¹.

- مفهوم الزاوية:

1-2- في اللغة: لعل لفظ "الزاوية" في الأصل مأخوذ من الانزواء بقصد العكوف على العبادة أو على تلقي العلم بعيدا عن دنيا الناس ومشاغلهم اليومية، وهي أيضا رباط المجاهد في سبيل الله وحافظ الثغور.

2-2- في الاصطلاح: إلا أن لفظ الزوايا اليوم يعني مراكز تحفيظ القرآن وتعليم أصول الدين الإسلامي والشعري ونشر الأخلاق والفضائل الإسلامية. وهي بذلك حصون العقيدة والإيمان، وأما التاريخ و التراث فهي

تخزن في صناديقها ورفوفها ذخائر التراث الإسلامي بأدابه وسجاياه الحميدة وملامحه التاريخية والوطنية.

كما أن الزاوية في الأصل ركن البناء، أطلقت على المصلى أو المسجد الصغير عند المسلمين في الشرق العربي على أن مصطلح "الزاوية" ظل في المغرب الإسلامي أكثر شمولاً من ذلك، إذ هو يطلق على بناء أو

طائفة من الأبنية ذات الطابع الديني، وهي تشبه المدرسة في تخطيطها وأجزائها ووظيفتها التعليمية. وقد ذكر "دوماس" Daumas عام 1847 في كتابه "منطقة القبائل" تعريفا لمفهوم الزاوية بالمغرب حيث قال: «إن

الزاوية هي على الجملة مدرسة دينية ودار مجانية للضيافة»².

والظاهر أن التعريف يتفق في الجوهر وما عليه "الزاوية" اليوم أو ما كانت عليه في الماضي والزاوية تحتوي عادة على مصلى، وغرفة قصرت على تلاوة القرآن ومدرسة لتحفيظ القرآن، وتلقين علوم الدين وقواعد اللغة العربية، كما تضم غرف أو مراقد لإيواء الطلبة وضيوف الزاوية والحجاج والمسافرين، ويلحق بها أيضا

ضريح الولي الصالح، ويكون هذا الولي في الغالب هو مؤسس الزاوية، أو أحد المرابطين بها ممن سطعت شهرته بالناحية وتجاوزت شهرة المؤسس نفسه³.

3- مفهوم المسجد:

1-3- في اللغة: سمي مسجداً لأنه مكان للسجود لله، ويطلق على المسجد أيضاً اسم جامع، وخاصة إذا كان كبيراً؛ ومن المعروف عن المسجد هو إقامة الصلوات الخمس به بين الجماعة، بالإضافة إلى صلاة الجمعة؛ ولكن ما ورد هو أحد أدوار المسجد⁴.

والمسجد لغة أيضاً، الموضع الذي يسجد فيه، ثم اتسع المعنى إلى البيت المتخذ لاجتماع المسلمين لأداء الصلاة فيه، قال الزركشي رحمه الله: «ولما كان السجود اشرف أفعال الصلاة، لقرب العبد من ربه، أشق اسم المكان منه فقيل مسجد، ولم يقال مركع، ثم إن العرف خصص المسجد بالمكان المهيأ للصلوات الخمس حتى يخرج المصلي المجتمع فيه للأعياد ونحوها، فلا يعطى حكمه»⁵.

وقولنا: مساجد، جمع مسجّد، إذا أردنا به المكان المخصوص المُعد للصلوات الخمس، كما نريد به موضع السجود، فإنه بالفتح لا غير مسجّد⁶.

2-3- في الاصطلاح: المسجد هو "مؤسسة دينية"، إجتماعية، سياسية، تربوية، اقتصادية، ويسمى حالياً ومجازاً بدار العبادة لما أتى على دوره الريادي من تقلص⁷.

كما أن المسجد في الاصطلاح الشرعي، المكان الذي أعد للصلاة فيه على الدوام، وأصل المسجد شرعاً كل موضع من الأرض يسجد فيه⁸.

أما الجامع: فهو نعت للمسجد، يسمى بذلك لأنه يجتمع أهله، ولأنه علامة للاجتماع، فيقال المسجد الجامع، ويجوز قول مسجد الجامع، بالإضافة بمعنى مسجد اليوم الجامع⁹.

* دور المسجد الحضاري في ظل تحديات الماضي ورهانات المستقبل:

للمساجد مكانة عالية ومنزلة عظيمة وفضل كبير عند الله تعالى، حيث أضافها الله تعالى إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم وفضل لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾¹⁰.

وقوله أيضاً: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾¹¹. وقوله أيضاً: ﴿وَإِنِ الْمَسَاجِدَ اللَّهُ فَلَا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾¹².

ومن هذا كل كانت للمساجد أدوار عظيمة في مواجهة تحديات أمتنا وحضارتنا العربية الإسلامية في الماضي، حيث واجهت أئمة المساجد، في مجتمعاتنا العربية والإسلامية تحديات عظمى مثل: (محاربة الجهل، والاستعمار، وكل أنواع الظلم والفساد الأخلاقي... وغيرها). ومن أهم الأدوار التي تقلد المسجد كمؤسسة دينية في الماضي نذكر:

1- الجهاد: فالجهاد شرع لإعلاء كلمة التوحيد، والمساجد هي أفضل البقاع التي ترفع فيها كلمة التوحيد، وتؤدي فيها أعظم الفرائض بعد الشهادتين، والدفاع عن هذا واجب في أي مكان وأي زمان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ

* دور زاوية الفقيه المصلح محمد بن عبد الكريم المغيلي في ظل تحديات الماضي ورهانات المستقبل:

✓ التعريف بالفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي:

- أولاً: البيئة الإجتماعية لنشأته:

هو الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، والمغيلي بفتح الميم نسبة إلى مغيلة قبيلة من البربر أستوطنت تلمسان ووهران والمغرب الأقصى، وهو فرع من قبيلة صنهاجة كبرى شعوب الأفرقة البيض، ولد في مدينة تلمسان (709هـ/1425م) من عائلة مشهورة بالعلم والدين والشجاعة في الحروب، حيث يعتبر العالم رقم عشرين في سلالة المغيليين التي تبتدئ بإلياس المغيلي

وهو ذلك العالم البربري الذي إعتنق الإسلام، وحمل لواء الجهاد فكان له شرف المشاركة مع طارق بن زياد في فتح الأندلس، والده عبد الكريم أشتهر بالعلم والصلاح، كما أن أمه أشتهرت بأنها سيدة فاضلة تحب الفقراء والمساكين وتتفق عليهم بسخاء¹⁸.

وهناك رواية أخرى تقول أن المصلح والفقيه والمنطقي والمتكلم والمفسر والمحدث والداعية المصلح المغيلي تربى في فترة شبابه في توات في الصحراء وأنتقل إلى فاس بهدف الدراسة، وكانت له مع علماء فاس مساجلات أخذت شكل الخلاف وأشتهر بعدائه لليهود¹⁹.

بالإضافة إلى هاتين البيئتين الإجتماعيتين التي نشأ وتربى بهما الإمام المغيلي نجد إن هناك ظروف عاشها في عصره هي أيضا صنعت عبقرية الرجل وذكائه وفطنته ومكانته السياسية والفكرية في مجتمعه.

- فما هي طبيعة هذه الظروف والأوضاع؟

- ثانياً: الظروف والأوضاع في عصره:

أ- من الناحية السياسية: لقد شهد عصر الإمام المغيلي عدة متغيرات إذ سقطت أغلب المناطق الإسلامية تحت وطأة الإستعمار، وشرد وطرده العديد من المسلمين من بلادهم؛ حيث كانت الظروف مشابهة بين مناطق الشمال والجنوب الجزائري.

ب- من الناحية الإجتماعية: حافظ السكان على تماسك وحدتهم بفضل تمسكهم بمبادئ الدين الإسلامي.

ت- أما من الناحية الاقتصادية أو التجارية: فقد كانت توات كمنطقة جغرافية منتجة من أهم الأسواق التجارية، حيث أنتجت العديد من المنتجات الزراعية.

ث- كما أن توات من الناحية الثقافية: لعبت دوراً كان له أثر بالغ على جميع أماكن الصحراء بفضل مجهودات العديد من الشيوخ والعلماء الذين تركوا العديد من الآثار والمراكز العلمية، والتي لا تزال مركز إشعاع إلى اليوم²⁰.

- ثالثاً: مرجعيته الفكرية

لقد حفظ القرءان على يد والده الذي علمه أيضا مبادئ اللغة العربية من نحو وصرف وبيان، كما قرأ عليه موطأ الإمام مالك وكتاب ابن الحاجب الأصلي، كم تلقى العلم عن علماء وشيوخ من تلمسان منهم:

- محمد بن أحمد بن عيسى المغيلي: الشهير بالجلاب التلمساني (ت 875هـ)، حيث أخذ عنه بعض التفسير والقرآن ولقنه الفقه المالكي؛ وقد ذكر المغيلي أنه ختم عليه "المدونة" مرتين و"مختصر خليل" و"الفرائض من مختصر ابن الحاجب" و"الرسالة".

- كما درس أيضا عن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن علي بن بن يحيى الحسني أبو يحيى التلمساني (ت 826 وقيل 825 هـ)، و محمد بن براهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن الإمام أبي الفضل التلمساني (ت 845 هـ)؛ لينتقل بعدها إلى بجاية ليأخذ عن علمائها (التفسير والحديث الشريف والفقه)، وراح بعدها يبحث عن الإستزادة من رحيق المعرفة فتوجه إلى الجزائر ليأخذ التفسير عن المفسر المشهور عبد الرحمن بن خلوف بن طلحة الثعالبي صاحب التفسير المشهور "الجواهر الحسان"، هذا الأخير أعجب بفضته وذكائه فزوجه ابنته عرفانا لعلمه وفقهه²¹.

- رابعاً: أهم آثاره الفكرية:

في البدء هناك إختلاف بين المؤرخين حول تعداد مؤلفات الإمام المغيلي فالبعض أوصل آثاره إلى أكثر من ثلاثين كتابا ورسالة نذكر منها:

- ✓ تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين.
- ✓ ما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام.
- ✓ أسئلة الأسكيا الحاج محمد وأجوبة المغيلي عليها.
- ✓ البدر المنير في علوم التفسير.
- ✓ تفسير سورة الفاتحة.
- ✓ مصباح الأرواح في أصول الفلاح (ضمنه فتاويه ومنها فتواه في نازلة توات، وعرفت في بعض المصادر باسم "تأليف" فيما يجب على المسلمين من إجتنب الكفار).
- ✓ أحكام أهل الذمة.
- ✓ تنبيه الغافلين عن مكر الملبيس بدعاوى مقامات العارفين.
- ✓ مغنى اللبيب في شرح مختصر خليل.
- ✓ شر بيوع الأجل.
- ✓ المنسيات.
- ✓ فتح المتين.
- ✓ مفتاح النظر في علم الحديث.
- ✓ منح في رد الفكر إلى الصواب.
- ✓ منظومة في المنطق، له شرح عليها سماه (منح الأحباب من منح الوهاب).
- ✓ مناظرة بينه وبين الشيخ السنوسي محمد بن يوسف في التوحيد.
- ✓ حاشية على خليل.
- ✓ شرح على جمل الخونجي.

✓ قصيدة عارض بها البردة... إلخ²².

✓ الإمام المغيلي ودوره في نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية:

يعتبر الإمام المغيلي أول من أخضع المعارف الإسلامية لمحك النقاش والأخذ والرد في منطقة توات والمغرب الأقصى والسودان، ودفع الحكام إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة، ومن بين القضايا التي توسعت دائرة النقاش العلمي حولها نذكر منها (الصلاة في الأضرحة، دفن الأموات في المساجد... إلخ)²³. كما كانت للإمام مراسلات في نشر علم المنطق مع جلال الدين السيوطي، بالإضافة إلى مراسلات مع محمد بن يوسف السنوسي حول عدائه لليهود بعد إن قتلوا ابنه "عبد الجبار" بمدينة توات إنتقاماً من والده الذي ضيق عليهم بعلمه وفقهه رغم كبر سنه²⁴؛ إذ تأثر بالإمام وأخذ عنه جماعة كالفقيه (أيدا أحمد والشيخ العاقب الأنصمني ومحمد عبد الجبار الفيحجي وغيرهم)²⁵، بعدها ارتحل الإمام إلى السودان حيث عمل مدرساً في بعض بلدانه نذكر منها (تكدة، غاو، كانو...، واتصل هنا بالعالم المشهور الأسكيا الحاج محمد وتذاكر معه في جملة من المسائل الفقهية)²⁶؛ وقد ذكر صاحب الديباج واحد وعشرين مؤلف ألفها في السودان.

ولما كانت المالكية هي المتداولة في عصره من خلال تدريس (موطأ الإمام مالك، والمدونة الكبرى للفقيه سحنون، وجامع المعيار للونشريسي ومختصر خليل...)، وقد لزم لفهمها واستيعابها خصوصاً في البلاد السودانية فهم قواعد اللغة العربية الشيء الذي دفع الإمام المغيلي إضافة إلى تدريس اللغة والعلوم الدينية تأليف مصنفها بعنوان "مقدمة في العربية"²⁷ وهدف المغيلي من تعليمه اللغة العربية وعلوم الدين في بلاد توات والسودان الغربي يتمثل في نشر العقيدة الإسلامية وتوحيد المسلمين للوقوف في وجه المد الإستعماري.

هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى ساعدت على إنتشار الثقافة العربية الإسلامية في أفريقيا السوداء مثل:

1- إقامة المساجد في أفريقيا: وما يتبعها من مؤسسات ثقافية ك: المدرسة القرآنية وبيوت الضيافة لعابر السبيل.

2- التجارة بين الجزائر وغرب القارة: ومن أهم الطرق التي حددها الجغرافيون والتي كان لها دوراً بارزاً في ذلك:

- أولاً: طريق وهران أرزيو إلى تمبوكتو:

يربط هذا الطريق بين فاس وتمبوكتو مروراً على الخيثر ومشرية وعين الصفراء وفقيق، ثم يتبع مجرى واد زوزفانة إلى إيغلي، ولهذا الطريق فرع آخر إلى الشرق الأول ينطلق من الخيثر إلى البيض والأبيض سيدي الشيخ، والمنقب وتوات أين يلتقى بطرق وهران ومكناس وتمبوكتو.

- ثانياً: طريق الجزائر العاصمة إلى تمبوكتو:

يمر هذا الطريق على البليدة والأغواط وغرداية والمنبوعة وعين صالح وأكابلي وبئر يتريشومين أين يلتقي بطريق توات إلى تمبوكتو، ولهذا الطريق فرع آخر من عين صالح إلى بئر عسيووتنتيلوست أين يتفرع إلى فرعين أيضاً الأول إلى أقادم وماو، وشرق بحيرة أتشاد؛ وإلى أقادم وكوكا جنوبها والثاني إلى الجنوب الغربي نحو أقاديش أين يتفرع الآخر إلى فرعين: فرع إلى سوكتو، وفرع إلى كاتسما.

- ثالثاً: طريق سكيكة وقسنطينة إلى أمقيد والهقار و تمبوكتو :

يمر هذا الطريق على باثنة وبسكرة وتقرت وورقلة والبيوض وأمقيد وتيميساو وايفروان إلى مبروك وتمبوكتو أو يربورج (برنوج)، ولهذا الطريق ثلاث فروع أيضاً: فرع يبدأ من جنوب بسكرة ويتجه إلى وادي سوف ومنها إلى غدامس وغات وميادو، وبلما وأقاديم وماو، وفرع ثانياً من اليون إلى عين صالح وفرع ثالثاً إلى غات.²⁸

3- الزوايا: هي أيضاً لعبت دوراً فعالاً على إختلاف أنواعها بين خلواتي وغير خلواتي في نشر ثقافة التصوف وتعاليم الإسلام واللغة العربية، والمتفقة في عمومها في عدم مهادنتها للإستعمار حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي؛ هذا مع العلم إن الطرق الصوفية هدفت أيضاً إلى الإصلاح الديني والإجتماعي، وإلى تحرير الشعوب من كل أنواع الاستعباد.

- فما أهم الزوايا التي لعبت دوراً هماً في نشر ثقافة التصوف وتعاليم الدين الإسلامي في منطقة توات والمناطق المجاورة لها خلال عصر الإمام المغيلي؟

* الزوايا ودورها في توات في عصر الإمام المغيلي:

إذا كان التصوف الروح العامة التي طبعت على عصر الإمام، فإن الزوايا تعتبر المراكز العلمية التي عملت على نشر ثقافة وتعاليم الإسلام والوعي الحضاري بحاضرة توات ومن أهم الزوايا التي كان لها دوراً بارزاً في المنطقة ثلاثة نذكرها هنا كالاتي:

1- زاوية الشيخ مولاي سليمان بن علي:

أسسها شيخها بعد قدومه من فاس إلى توات عام (605هـ/1208م) ومن أهم مهامها (تعليم القرءان ، اللغة العربية والتوحيد، ونشر الفكر الصوفي من خلال الأوراد التي لقنها لأتباع الزاوية الذين أنتشروا بكامل الصحراء الكبرى وبلاد السودان الغربي)،²⁹ بالإضافة إلى إمتلاك الزاوية مكتبة كبيرة في مختلف العلوم منها علم (الحديث، الفقه، اللغة العربية، الحساب، الجغرافيا، الفلك، الطب، المنطق...إلخ)؛ إلا أن الزاوية تخلت عن دورها التعليمي بعد وفاة شيخها لتكتفي بالدور الإجتماعي وهو المتمثل في إيواء المسافرين وتقديم الطعام للزوار.

2- زاوية الشيخ أبي يحي المنيارى:

أسنقر مؤسسها أبي يحي المنيارى خلال القرن (التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي) بتوات ومن أهم الأدوار التي قامت بها زاويته (نشر الإسلام والإصلاح بين القبائل السودانية في الجنوب، وعملت على نشر ثقافة التسامح بين مختلف شرائح المجتمع التواتي؛ وحتى الخارج عنه (أهل الذمة))، كما إمتلك الزاوية خزانة علمية كبيرة ساهم في إنشائها مختلف الشيوخ والتلاميذ، مع العلم أن الزاوية إستقادت من رضى السلطان الوطاسي محمد الشيخ، كما كان لها سند حربي متمثل في قبيلة "أولاد علي بن موسى" التي دافعت عن الزاوية وأفكارها التي إنتشرت خصوصاً في عهد عبد الله بن أبي بكر العنوني في أغلب جهات إقليم توات.³⁰

3- زاوية الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي:

لما دخل الإمام المغيلي إلى توات نهل العلم على شيخ زاوية أبي يحيى المنياري بتمنيط مما يدل على أن توات كانت منارة علمية أيضاً، وسافراً بعدها إلى أولاسعيد بإقليم قرارة حالياً وعاد بعدها إلى تمنيط، وحين وقعت حادثة اليهود وتم الخلاف بينه وبين شيخه بزواية تمنيط سافر الإمام المغيلي إلى إقليم توات الوسطى وبالضبط بقصر بوعلي وأسس زاويته التعليمية عام (885هـ / 1480م)، وسرعان ما زوجت الزاوية بين مهمة التعليم والحرب فكانت زاوية قاعدة لضرب قواعد اليهود في مختلف قصور توات خصوصاً (تازولت، وتاخيفت وتاسفاوت وتمنيط وغرمالال... إلخ).

والزاوية إضافة إلى الإتجاه العلمي والإتجاه الحربي كانت الزاوية ذات إتجاه صوفي أيضاً تمثل في نهج الطريقة القادرية والتي كانت من أوائل الطرق في الإقليم والأكثر نفوذاً في إقليم توات والمناطق المجاورة منها (التكرور، والسودان الغربي...)، ومن أهم المهام المنوطة بهاته الزاوية:

- توحيد المجتمع وتقوية بنائه في وجه العدو سياسياً إجتماعياً دينياً وثقافياً

- كما يعود للإمام المغيلي الفضل في إدخال الورد القادري إلى الصحراء السودانية علماً إن الشيخ أحمد البكاري هو أول من حمل الورد لكنه لم يعمل على نشره، ولكن ابنه عمر الشيخ الذي كان التلميذ الوفي للإمام المغيلي ورفيقه في السفر والذي أصبح الناشر للطريقة الصوفي القادرية فيما بعد.

وبعد عودة المغيلي إلى الشمال تقلد عمر الشيخ المنصب الأعلى للطريقة القادرية وأسمه في السلسلة القادرية والصوفية مباشرة بعد إسم المغيلي، الذي كان هو نفسه تلميذ السيوطي؛³¹ وعلى هذا الأساس ينتسب فرع البكائية للسلسلة الكبيرة والمشاركة لقادرية المشرق والمغرب، ويعود الفضل إلى الشيخ عمر الشيخ بداية القرن (العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي)، وقد خلفه على رأس الطريقة القادرية البكائية (***) الجديدة ابنه أحمد الفيرم الذي عاش في النصف الأول من القرن السادس عشر.

وهنا من يقول إن إنتشار الطريقة القادرية بالمغرب كان على يد أبي مدين شعيب الأنصاري الأندلسي (ت 940هـ / 1533م)، وللإمام المغيلي وظائف أخرى تعددت بتعدد مجالاتها ذكرها الباحث والكاتب الحمدي أحمد نقدمها هنا باختصار:

1- في المجال العلمي والثقافي:

لقد تأثر إقليم توات بالحركة العلمية في شمال الجزائر وبالخصوص في تلمسان، وباقي مدن المغرب الإسلامي مما انعكس عنه ظهور علماء وإنتاج علمي وفير شمل مجالات معرفية متنوعة منها: (التصوف والفقهاء والتوحيد وعلم الكلام والمنطق بالإضافة إلى علم الحساب والفلك...)، وهذا تذخر به معظم مكاتب الزوايا في هذا الإقليم؛ والإمام المغيلي له دوراً بارزاً في هذا المجال بالإضافة إلى التدريس والوعظ عمل على نشر المذهب المالكي والورد القادري، وكذلك اللغة العربية والمنطق، وعلم الحديث؛ وللعلم أنه أسس زاوية للعلم في منطقة توات، كما أملى بعض كتبه بمسجد الكرامة الذي أسسه بأكدس، والذي يعد منارة علمية ظل يستقي منها أبناء تلك المنطقة؛ هذا بالإضافة إلى عدد معتبر من المريدين الذين تعلموا على يده بمدينة (كشنة وكانو وكاغو... إلخ)، حيث أفتى ودرس وعمل على نشر الإسلام.³²

2- في المجال السياسي:

لقد تمكن الإمام المغيلي من تغيير النظام السياسي بتوات تغييراً جذرياً وبنقل العاصمة من تمنطيط إلى بوعلي، حيث سحب السلطة من رؤساء القبائل وجمعها في يد شخص واحد هو ابنه عبد الجبار كقائد أول للجيش مهمته حماية النظام في توات، وبهذا تحررت توات من التبعية لأي دولة من الناحية السياسية والإقتصادية.

وبعد تحرير توات وإجلاء اليهود منها وإرساء قواعد الشريعة الإسلامية سافر الإمام إلى المناطق المجاورة خصوصاً السودان الغربي لمواصلة نشر الدين الإسلامي وإرساء الإصلاح الإجتماعي،³³

3- في مجال التصوف:

اقتفى الإمام المغيلي طريق الأوائل في هذا المجال، حيث ركز أيضاً على تهذيب الأخلاق وهذا ما تعكسه فلسفة الإصلاح عند جميع المتصوفة المنطلقة من فكرة لا صلاح لهذه الأمة إلا بما صلح به أولها؛ والتي أختار أصحابها فلسفة تربوية لتنتشئ الأفراد، إلا إن الإمام المغيلي كان ينتقد التصوف القائم على عزلة الحياة ويناشد التصوف العامل الذي يجمع بين مهمة العلم والجهاد دفاعاً عن الدين والأمة معاً؛ حيث كتب الإمام المغيلي في شأن ذلك "كتاباً بعنوان "تنبيه الغافلين عن مكر الملبيسن بدعوى مقامات العارفين"، وهو نقد لأدعياء التصوف خصوصاً الذين يدعون الولاية بإسم العلم ودعاهم بعلماء السوء، لأن تصوفهم بهذا المنطلق غير ملتزم بالكتاب والسنة، لأنه لو كان ملتزم لجمع بين العلم والعمل؛ وهذا ما تتلمذ عليه الفقيه المغيلي على يد الشيخ عبد الرحمان الثعالبي والشيخ أبي العباس الوغليسي.

وما يدل على أن تصوفه عملي لا علمي هو زاويته التي أسسها بتوات الوسطى، والتي كانت مركزاً علمياً لنشر الإسلام في بلاد التكرور والسودان الغربي سواء في تلقين العلم أو الورد القادري؛ هذا بالإضافة إلى الصفات الثمانية عشر التي أوردها كخصال يجب توفرها في السالك نختصرها هنا كما يلي:

- إختيار الرفق الحسنة.

- مصاحبة أهل الذكر: وهم أهل الصلاح والفلاح وأهل العلم والتقوى ومذكراتهم تؤيد السالك معرفة وعملاً.³⁴

- الإتصاف بالطمع والورع: فالطمع لا يكون إلا في الله، والورع لا يكون إلا في مجانية علماء السوء والدجالين حتى وإن كانوا من المنتسبين لأهل الله؛ وقال أحد الصوفية مقالة في ذلك:

إذا رأيت رجل يطير أو فوق الماء يسير

ولم يقف عن حدود الشرع فإنه مستدرج وبدعي

وأسفا على الطريقة السايله أفسدها طائفة الدجاجة

قد أهدثوا طريقة بدعية ورفضوا الطريقة الشرعية

- الإتصاف بالصدق وحب الخير: فالسالك لو أتصف بذلك لكان أفضل الناس.

- إبتغاء العلم واجتناب السحر: هذا ما سعى الإمام المغيلي إلى مكافحته في عصره نتيجة إبعاد أهل السحر الناس عن جوهر الدين.

- التوكل على الله وحده وتفويض الأمور إليه.
- العزلة والخلوة: التي تمكن المرید من تركية قلبه، ونبذا الإمام المغيلي الخلوة التي تؤدي بالمرید إلى البطالة والتعطل.
- الإلتزام بالجماعة: لأن الطريقة هي الجماعة التي تجدد للمرء دوماً دينه وتذكره بخالقه وعبادته.
- الإلتصاف بالإخلاص في العمل: لأن صاحبه يقول الإمام المغيلي يستغني بالحلال عن الحرام.
- إجتناّب الغيبة: فالإمام المغيلي يقول في شأن الغيبة الممتنعة أن تذكر من مسلم ما يكرهه تنقيصاً منك له بالهوى لا بالتقوى، فليس منها أن تذكره بما هو عند الله مذموم وصاحبه معلوم وإن كره ذلك.
- نصرة قوى الخير عن الشر: والتغلب عن الطبيعة الروحية للفرد.
- ذم الدنيا: لأنها دار الهالك والغرور لا ينجو منها إلا تقي ورع ولا يسقط في شباكها إلا ظالم هالك.
- الإعداد للأخرة: لأن المرید إذا عرف الله حق المعرفة عبده عبادة الأحرار العارفين بأحوال الدنيا.
- حال الإنتقال: فالمرید لا يحكم نفسه في فعل من الأفعال إلا في حالة تكون نفسه مختارة بين الإنتقال من الدنيا إلى الأخرة، لأن هذا الحال لا يجعل النفس تنظر إلا إلى ما هو أحب إليها أن تموت عليه.
- إجتناّب الجهل: فالإمام المغيلي ينبذ أدعياء التصوف غير المتعلمين خصوصاً لأنهم كثروا في عصره، ويؤكد على تعلم العلوم الدينية والتي لن تتأتى عبادة الله دونها.
- التصديق بالكرامة لأولياء لأنه تصديق بالأنبياء: إلا أن الإمام المغيلي لم يشترط في حصول الولاية الكرامة، لأنها لو حصلت لولي فهي دلالة على صدقه وعبادته وإتباع سنة النبي عليه الصلاة والسلام، وإن لم يكن متبعاً للرسول فالكرامة خذلان من الشيطان؛ لأن الكرامة في جوهرها إستقامة على الشريعة.
- الجمع بين العلم والعمل والجهاد: فالمرید ينبغي أن يكون عاملاً بكل ما علم لأن الخير يدفع بالشر، فعامل العامل هو القدوة الحسنة لغيره والمجدد للأمر الأمة ونهضتها؛ والعلم المقصود به هنا العلم بكتاب الله وسنة نبيه الكريم لا العلم الجالب للحظ العارض، فالعلم بالشرع يعني مجاهدة النفس قبل العدو عملاً بما يرضي الله سبحانه وتعالى وإتباع لأثره الشريف في جميع معاملتنا.³⁵

* خاتمة:

ومن خلال القول البسيط فيما عرفناه عن أدوار المسجد عموماً، وزاوية الفقيه المصلح "محمد بن عبد الكريم المغيلي" من خلال تدارس الحياة الثقافية والعلمية في إقليم توات خلال القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر الميلادي يظهر جلياً علاقة المسجد والزاوية والمدارس القرآنية والكتاتيب... وغيرها من المؤسسات الدينية بما تعيشه حضارتنا العربية والإسلامية اليوم، إذ بفضل نهوض أئمة المسلمين بإدوار المسجد والزاوية سابقاً كالفقيه المصلح والصوفي الشيخ "محمد بن عبد الكريم المغيلي" الذي نعتبره بحق مثلاً للجمع بين المؤسسات الدينية في بلدنا نظر لتعددتها واختلافها حيث أستطاع أن يقدم مثلاً للجمع بين مؤسسة المسجد والزاوية في الحفاظ على هوية الأمة العربية الإسلامية من كل التحديات والرهانات التي كانت تحاول أن تعصف بهوية أمتنا الإسلامية، وهذا من خلال أنه زواج بين ثقافة العلم وثقافة التصوف في ظل تغيير الظروف والأوضاع الساسة والاجتماعية في منطقة توات والمناطق المجاورة لها خلال عصره، بدءاً بأنه حث

على هاته التعاليم وأوصى بها مريديه الذين أوصوا بها من أتوا بعده؛ كما أن "الإمام المغيلي" عمل جاهداً بجد السيف على نشر الإسلام والثقافة العربية في جميع الأمكنة التي وطأتها قدمه سواء في الجزائر أو خارجها.

- فإذا كان الحديث هنا عن أحد رجالات منطقة "توات" في هاته الفترة الزمنية المعتمدة، فماذا عن باقي رجالاتها الإجماع نفعنا الله جميعاً ببركاتهم؟
* ثبت المصادر والمراجع:

¹- فاروق مداسي، قاموس مصطلحات علم الاجتماع، دار مندي للطباعة والنشر، دط، الجزائر، 2003، ص (224-233).

²- شهبي عبد العزيز، الزوايا والصوفية و العزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، دط، وهران، الجزائر، 2007، ص13؛ نقلا عن: ليفي بروفنسال «الزوايا»، دائرة المعارف الإسلامية، تر: أحمد الشتاوي وآخرين، المجلد 10، القاهرة 1933، ص332.

³- المرجع نفسه، ص332.

⁴- حمودة صلاح، بحث عن المسجد، عن الموقع الإلكتروني: <https://vb.elmstba.com/t210338.html> ، بتاريخ: 20-04-2018 على الساعة: (12:28) صباحاً.

⁵- سعيد بن علي بن وهف القحطاني، المساجد، مفهوم وفضائل وأحكام، وحقوق وآداب، في ضوء الكتاب والسنة. سلسلة صلاة المؤمن، ج9، منتدى الألوكة الإلكتروني، 1421هـ. ص5.

⁶- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁷- حمودة صلاح، بحث عن المسجد، عن الموقع الإلكتروني: <https://vb.elmstba.com/t210338.html> ، بتاريخ: 20-04-2018 على الساعة: (12:28) صباحاً.

⁸- سعيد بن علي بن وهف القحطاني، المساجد، ص6.

⁹- المرجع نفسه، ص7.

¹⁰- القرآن الكريم، سورة: البقرة، الآية: 114.

¹¹- القرآن الكريم، سورة: التوبة، الآية: 18.

¹²- القرآن الكريم، سورة: الجن، الآية: 18.

¹³- القرآن الكريم، سورة: الحج، الآية: 40.

¹⁴- القرآن الكريم، سورة: الحج، الآية: 40.

¹⁵- القرآن الكريم، سورة: البقرة، الآية: 114.

¹⁶- القرآن الكريم، سورة: النور، الآية: 36.

¹⁷- سعيد بن علي بن وهف القحطاني، المساجد، ص13، نقلا عن: مسلم، صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الجلوس في المصلى بعد الصبح، وفضل المساجد برقم 671.

¹⁸- عبد الحق حميش ومحفوظ بوكراع بن ساعد، موسوعة تراجم علماء الجزائر، دار زمورة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2011، ص241.

¹⁹- قدوري عبد الرحمن، الوجود المغربي بمنطقة السودان الغربي في القرن (9 و10 هـ/15 و16م) دراسة في الدوافع والنتائج، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، تحت إشراف: أ.د/ مبخوت بودواية، قسم التاريخ وعلم الآثار، شعبة تاريخ، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، (2010-2011م).

²⁰- أحمد الحمدي، الفقيه المصلح محمد بن عبد الكريم المغيلي، الإطار المعرفي والتعامل مع المكانية، مكتبة الرشد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، سيدي بلعباس، الجزائر، 2012، ص (17-18).

²¹- المرجع نفسه، ص 242.

- 22- المرجع نفسه، ص 243، راجع أيضاً: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.
- 23- التبتكي أحمد بابا، الإبتهاج بتطريز الديباج، تق: عبد الحميد الهرامة، ليبيا، 1988، ص 577.
- 24- علي مسعود، تأثير الشمال الإفريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي، جمعية الدعوة الإسلامية، دط، طرابلس، 2003، ص 141.
- 25- المرجع نفسه، ص 138.
- 26- راجع: المغيلي محمد بن عبد الكريم، أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي، تح: عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دط، الجزائر، 1974.
- 27- قدوري عبد الرحمان، الوجود المغربي بمنطقة السودان الغربي في القرن (9 و10هـ/15 و16م) دراسة في الدوافع والنتائج، ص (15-16).
- 28- عمار هلال، الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب أفريقيا السمراء، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغبة، دط، الجزائر، 1988، ص (72-73).
- 29- الحمدي أحمد، الفقيه المصلح محمد بن عبد الكريم المغيلي، ص 61 و ما بعدها.
- 30- المرجع نفسه، ص 62، نقلا عن: محمد الطيب بن عبد الرحيم، القول البسيط، ص (29،36).
- 31- حنان فردوسي، محمد الخليفة الكنتي - حياته وآثاره، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، تحت إشراف: أ.د/ بن نعيجة عبد المجيد، قسم الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة السانبا، وهران (2008-2009).
- (**) البكائية: فرع من فروع القادرية أسس الشعبة البكائية الشيخ أعر بن الشيخ أحمد البكاي في (القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي)، وقد سافر إلى الشمال مراراً ولقى الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي في توات وأخذ عنه وبلغت هذه الطريقة أوجها مع ظهور الشيخ المختار الكنتي (1226هـ / 1811م)، أنظر: خليل النحوي، بلاد شنقيط، المنار، دط، الرباط، دس، ص 121.
- 32- الحمدي أحمد، الفقيه المصلح محمد بن عبد الكريم المغيلي، ص (19-37)، أنظر أيضاً: عبد الحميد حاجيات، الحركة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، مجلة الأصالة، عدد 26، جويلية- أوت، 1975، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ص 155.
- 33- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1995، مج2، ص 155.
- 34- المغيلي محمد بن عبد الكريم، أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي، ص 164.
- 35- الحمدي أحمد، الفقيه المصلح محمد بن عبد الكريم المغيلي، ص (191-220)، راجع أيضاً: المغيلي محمد بن عبد الكريم، أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي، ص 163 وما بعدها.